بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

بين عبقرية اللغة وجلال الإعجاز

إن لغة يختارها الله تعالى لتكون وعاء لبيانه، ومستودع إعجازه، لابد أن يكون الله قد أمدها بخصائص ذاتية، تنفرد بها فى حروفها، ومفرداتها، وطرائق نظمها، حتى تتمكن من تحمل ما يبثُّه الله فيها من أسرار حكمته، وما يشيعه فيها من أنوار هديه، ولابد أن يكون أصحابها قد أودع الله فى سلائقهم وأذواقهم، ما يهبهم القدرة على استلهام خصائص لغتهم، واستغلال طاقاتها الهائلة، فى الإبانة عن مكنونات صدورهم من ناحية، والنفاذ إلى مقاصد المتكلمين من ناحية أخرى، وهو ما بلغ فيه العرب الذروة حين أنزل إليهم هذا الكتاب، قدرةً على التصرف فى فنون الكلام، وإحساسًا بقدر ما ينفذ إلى مسامعهم من بيان الأبيناء، حتى وصل بهم الحدُّ إلى تقديس الكلمة، وتعليق روائع إبداعاتهم بأستار الكعبة، وهى أعظم ما يمتلكونه من المقدسات، وحتى رأينا أحد الأعراب يخر ساجدًا حين سمع لأول مرة قوله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**﴾ [الحجر: ٩٤] قبل أن يسجد لمن أنزل هذا البيان، ولا أعرف أمة من الأمم تعبَّدت ببيانها كما تعبَّد العرب بفيض صدورهم، ولا طربت أمة بلحون لغتها، وأنغام حروفها، كما طرب العرب بلحون أشعارهم.

إن هذا الإحساس بجمال الكلمة، وقدسية الحكم عليها، هو الذى جعل العرب يمتنعون عن تزوير شهادتهم على القرآن، حين تحداهم أن يأتوا بمثله، وحين أمعن فى التحدى بأن يأتوا بسورة من مثله، فآثروا أن يوصموا بالعجز، ويجلل العار رؤوسهم، على أن يزوروا شهادتهم، ويقولوا فى القرآن غير ما يعتقدون، وكان

بمقدورهم -وهم الـذين أُسند إليهـم الحكـم على المنزَّل- أن يتـمـالؤوا على نص أو نصـوص مما جادت به قـرائحهم، فـيحـكموا بأنه يضـارع القرآن أو يفـوته، ولكنهم لم يفـعلوا، ليظل جـلال الكلمـة وحـده فى حـياتهم مـبـرَّأً من الغش والتدليس، وهم الذين كذبوا على رسول الله، فـوصفوه بالساحر تارة، والكاهن تارة ثانية، والشاعر تارة ثالثة، على يقينهم بأن واحداً من هذه الأوصاف إن صح إطلاقه على أى أحـد من الناطقين بهذه اللغة، فـلا يصح وصم رسول الله ﷺ به، وتلك آية تشـهد بأن الله تعالى قـد اختار لكتـابه اللغة القـادرة على الاتساع لفيض هديه، والقـرائح القادرة على إبداع بيان رفـيع يؤهله لأن يقاس به الكلام المعجز، فيظهر فوت الطاقة فى بـيان الله، واختار الأذواق التى منحها الله القدرة على الموازنة بين أعظم ما جادت به أسلات البشر، وما تنزل من بيان نفخ الله فى حروفه وكلماته وجمله من روحه، فسرت فيه حياة تعدل فى تفردها نَفخَ الله فى التراب ليكون بشـراً سوياً، ليظل القرآن آية تدل على أنه من عند الله، كـما ظل آدم شاهداً بقدرة الله على نفخ الحياة فى الجمادات.

إن أكبر دليل على ما أوتيـه هؤلاء الذين تنزل عليهم القرآن من حس فاق كل حس، وذوق فاق كل ذوق، مكنهم من إدراك الفروق بين بيان بلغ غاية ما يطيقه البشر، وبيـان فات الطاقة، ووقفت دونه روائع الإبداع الإنسـانى -إن أكبر دليل على ذلك- هو ما جـرى عذباً رائقاً فى وصف القرآن على لسـان رجل لم يترك سبيلاً لحرب من تنزل عليه القرآن، سعياً لإسقاط دعوته، وإسكات صوته، وهو الوليد بن المغيرة، الذى أوجز إعجاز القرآن فى عبارة أزعم أننى لم أقرأ مثلها فى الشهادة بإعجاز القرآن: (إن له لحلاوة، وإن عليه لطُلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته).

وما يلفت النظر فى عبارة الوليد هى الشهـادة الصادقة بتفرد القرآن فى نظمه، وجمعـه بين شدة التأثير الداخلى والجمـال الذين يزين شكله الخارجى، والإقرار بأن كل بيان سوى بيان الله -مهما بلغ من التفوق- لا يتعدى موقعه من الأرض،

محكومًا بـطاقة أصحابه من أهلها، لـيظل القرآن فى سمائه، بعـيدًا عن المجاراة والمداناة، وهو ما يفصح عنه بجلاء قـوله: «وإنه ليعلو ولا يعلى» والتصريح بأن أى محـاولة للاقتراب ببـيان أرضى من سمـاء القرآن تعـرضه للاحتـراق بشهب القرآن، كما احتـرقت محاولات مسيلمة وأمثاله، ممن كـانت أقوالهم التى حاكوا بها القرآن عـارًا وخـزيًا لا يزال يلاحقهـم كلما قـرأ مـأثوراتهـم القارئون، وهـو ما حذر منه الوليد فى قـوله: «وإنه ليحطم ما تحته» فتحـاشاه العقلاء من أرباب البيان إبان إشـراقة أنوار هذا الكتاب، وتلك شهـادة بأن كل كلام هو دون كلام الله، وبعبارة الوليد «تحت كلام الله»، وأن هذه التحتية تلازم بيان الناس، وتقف بإبداعاتهم بعيدًا عن فضاء القرآن، إلى الحد الذى يضمن التحاجز التام بين ذوب ألسنة البشر، والوحى الذى أنزله الله على عـبده ليكون دليلاً على أنه رسول الله إلى البشـرية، وهى شهادة قـاضية كذلك بأن العـجز البشـرى عن مداناة الكلام المنزل قائم إلى يوم القيامة، ضرورة أن الشاهد واحـد من فصحاء القوم فى عصر تنزل القرآن، ولم ينازعه فى شهادته أحد ممـن استمع إليه، وكلهم أصحاب علم ودراية بمنازع الكلام وطرائقه، وما تجلَّى أو استتر من مقـاصد أصحابه، فما كان لهؤلاء القوم علم أصح من علمهم بمطارح لسـانهم، ووهج أفئدتهم، حتى روى عن الجاحظ قوله: (بعث الله محمدًا عليه الصلاة والسلام والعرب أكثر ما كانت شاعرًا وخطيبًا، وأحكم ما كـانت لغة) وقوله: (ومعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صـدق مـن الديباجـة الكريمـة، والرونق العجيب، والسـبـك والنحـت، الذى لا يستطيع أشعـر الناس اليوم، ولا أرفعهم فى البيـان أن يقول مثل ذلك إلا فى القليل واليسير. . البيان والتبيين ٣/ ٢٩).

فشـهادة هؤلاء القوم هـى الشهادة، وهى حـجة على كل ناطق بالعـربية ممن دونهم علمًا بـفرائد اللغة وشـواردها، ممن أتوا ويأتون بعدهم إلى يوم تجف فـيه الأقلام وتخـرس الألسنة، ودعك من تخرصات بعض المعاصـرين الذين أصدروا دعاواهم بعد فـساد اللسان، وانطفاء جـذوة البيان، وسريان العجـمة فى حروف العربية ولحونها، مثل قول أحد المعـاصرين، وهو نعيم الحمصى فى أحد مقالاته

التى نشـرت فى مجلة المجـمع العلمى بدمـشق: (ومما يدل -فى رأيى- على أن الأدب الجـاهلى كان بمثابة تمهيد للعصـور الأدبية التى بعده أنه كان ينقصه فن أدبى كـان لايزال فى الجاهليـة فى بدء تكوينه، وهو النثـر الفنى.. وأن أكـمل الفنون الأدبية الجاهلية وهو الشـعر لا يساوى على التحقيق شعر العـصر العباسى الأول، إذا قسناهما بمقـاييس فنية صحيحة. ولتخـلف العرب فى فَنَّى الخطابة والنثر الفنى كانت دهشتهم من بيان القرآن، وأسلوبه، دونها دهشة الأدباء العباسيين الفحول).

وأنا لا أسأله عن المقاييس الفنية الصحيحـة التى احتكم إليها فى تفضيل شعر العصر العـباسى الأول على الشعر الجاهلى، لأنـه قول مرسل بلا دليل، ولأننى أعلم أن هذه المقاييس الفنيـة المزعومة التى توازن بين الشعـر الجاهلى، وتكشف عن خصائص بيان أصحابه، وتميز بينها وبين قيم الشعر العباسى وتقاليده ومناهج أصحـابه -مثل هذه المقـاييس- لم توجد بعـد فى فكرنا النقدى، ولكنـنى أحيل الباحث إلى ما نقلته آنفًا عن الجاحظ، وهو أحد أئمـة البيان فى العصر العباسى الذى يزعم كـاتبنا أنه بزّ العصـر الجاهلى فى شـعره ونثـره، ولا أظن أن كاتـبًا معاصرًا أقدر على تقويم نتاج العصـر العباسى من أصحابه، وما عهدنا أن يكون الغـائب أصـدق رؤية، وأبين حجـة من الشـاهد، ثم إن الدعـوى بأن اندهاش المخاطبين فى عـصر المبعث، مرجـعه ضعف ما بين أيديهم من ضـروب البيان، أخطـر مـا وجـه إلى إعجـاز القـرآن، ولا يَعْـدلُه فى خطـورة هذه الدعـوى إلا ما ذهب إليه «مرجليـوث» وأشياعه ممن قالوا بنحل الشعـر الجاهلى، وانتهوا إلى إسقاطه كله.

وإذا كان القرآن معجـزًا بنظمه كما انتهى إليه أئمة البيـان، فإن العُرَى الممسكة بنسيج الكلام تلعب دورًا كبيرًا فى استقامة النظم وتلاحم أجزائه، ومن ثم كانت الروابط التى تصل بين مفردات الكلام وجـمله، والمنعوتة بحروف العطف، تمثل أحد الوجوه التى تلتـقى فيها عبقرية اللغـة وإعجاز القرآن، فعبقـرية اللغة تظهر جليـة فى الربط بين أقدار الحـروف ودلالاتها، من حيـث إن الفاء العاطفـة تمثل صوتيّاً مقطعًا قـصيرًا واحدًا، يستغرق نطقه زمنًا قصـيرًا مخطوفًا، بخلاف «ثُمَّ»

المكونة من مقطعين: أحدهما متوسط مقفل، والثانى قصير، ونطقهما يستغرق زمنًا أطول، يضاعف من طوله هذا الإدغام الناتج من اجتماع الميمين الساكن أولهما، لذلك اختيرت الفاء القصيرة فى زمن نطقها، للدلالة على التعقيب، وهو سرعة توالى الأحداث، لتتناغم سرعة النطق بالحرف مع سرعة وقوع الحدث، وجُعلت «ثم» التى يطول زمن النطق بها دالة على التراخى، المؤذن بالبعد بين زمنى الحدثين. هذا إلى جانب أن الفاء وهى حرف مهموس يسمح بتسرب النفس، فى حين يحتبس النفس مع «ثم» المنتهية بحرفين مجهورين، ليوحى بطول الانتظار وثقله على النفس. تلك عبقرية اللغة فى الحرفين اللذين آثرنا الحديث عنهما من بين أدوات العطف. أما إعجاز النظم فى وضع هذين الحرفين موضعهما، فهو ما تكفل بتتبعه هذا الكتاب، باحثًا عن دقائق المعانى وخفى الأغراض، كاشفًا عن دلالات هذين الحرفين فى استعمالات القرآن الكريم، متقصيًا ما خفى من مواضعهما، واقفًا عند مشتبه النظم، مما اتحدت ألفاظه وجمله، وخولف الربط بينها بالفاء تارة، وثُمَّ تارة أخرى، مستعينًا فى الكشف عن الأغراض المختبئة فى فروق النظم بإيحاءات السياق، مثلما تجده فى قوله تعالى: ﴿**فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٧، والنحل: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [الأنعام: ١١] فقد اتحد النظم فى الآيتين لفظًا ومعنى، وخولف بينهما فى حرفى العطف: «الفاء، وثم»، ولا يمكن أن تكون هذه المخالفة فى نظم القرآن إلا لغاية أرادها منزله، وهى إن خفيت على النظرة السريعة العجلى، فهى لا تخفى على من يُنعم النظر فى سياق الآيتين، ويستمع إلى همس الحروف والكلمات، وذلك ما حاولنا تتبعه فى مواقعه المختلفة من الذكر الحكيم.

لقد حاول الكتاب فى استجلاء أسرار الربط بهذين الحرفين فى نظم القرآن الكريم الوقوف عند حقيقة الحرف ومجازه، مبرزًا وجه البلاغة فى إيثار أحد

الحرفين على الآخر، وهو ما خلت منه كتب البلاغة، وعمرت به التفاسير التى عنيت بالكشف عن بلاغة القرآن، وفى مقدمتها تفسير الزمخشرى، وكان لبيان القرآن الفضل فى الوقوف على استعمالات الحروف فى بيان الفحول من الشعراء، وهو ما لم يستطع شراح الشعر من قبلُ استكناه أسرارها، إلا بعد أن ألهمها الله المفسرين فى تأملاتهم لدقائق النظم الكريم.

إن للحروف أثرًا بينًا فى الكشف عن وجوه إعجاز النظم، وخاصة تلك الحروف التى تتعاور مواقعها فيما بينها، سواء أكانت حروف جر، -وقد أفردت لها كتابًا تحت عنوان «من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم»- أم كانت حروف عطف، كما سيجده القارئ فى تعاور حرفى العطف «الفاء» و«ثم» مواقعهما فى الكتاب المجيد. وقد سبق لإمام البلاغة الشيخ عبد القاهر الجرجانى التنبيه إلى مواقع هذه الحروف وتأمل أثرها الدلالى فى نظم الكلام، وقطع بأن خصوصيات النظم التى يتفاوت بها كلام عن كلام حتى يصل التفاوت إلى حد الإعجاز، تقوم فيما تقوم على النظر (فى الجمل التى تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع «الواو» من موضع «الفاء» وموضع «الفاء» من موضع «ثم»، وموضع «أو» من موضع «أم»... دلائل الإعجاز بتحقيق محمود شاكر ٨٢).

وقد وقف الإمام يستقرى الكلام الفاخر، والنمط العالى الشريف، الذى لا تجده إلا فى شعر الفحول البزل، ثم المطبوعين الذين يلهمون القول إلهامًا، إلى أن قال فى صفحتى ٨٩، ٩٠ من كتاب دلائل الإعجاز: (ثم إنك تحتاج إلى أن تستقرى عدة قصائد، بل أن تَفْلِىَ ديوانًا من الشعر، حتى تجمع منه عدة أبيات، وذلك ما كان مثل قول الأول؛ وتمثل به أبو بكر الصديق -رضوان الله عنه- حين أتاه كتاب خالد بالفتح فى هزيمة الأعاجم:

تمنانا ليلقانا بقوم ... تخال بياض لأُمِهُمُ السرابا

فقد لاقيتنا فرأيت حربا ... عوانا تمنع الشيخ الشرابا

انظر إلى موضع الفاء فى قوله: «فقد لاقيتنا فرأيت حربا».

ومثل قول العباس بن الأحنف:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

انظر إلى موضع «الفاء» و«ثم» قبلها).

وهذه إشارة ألقاها شيخ البلاغة ومضى، لكنها كانت فتحًا كبيرًا لوقفات طويلة عند أمثال هذه الفاء من نظم القرآن، مما سمى بالفاء الفصيحة، وفاء المفاجأة، وحسب الشيخ أنه أبان عن ذوقه الرفيع فيما أشاعه هذان الحرفان «الفاء» و«ثم» فى مواقعهما من الأبيات التى استشهد بها، وألمح بذلك إلى دور الروابط، ووجوه الحسن التى أضفتها على بنية الكلام ودلالته، حتى كانت آية الآيات فى كلام المطبوعين الذين يلهمون القول إلهامًا، وهى لعمرى آية الإعجاز فى مواطنها من نظم القرآن الكريم، حين تَطْوى الفاء الأحداث وتضمر زمنها، وتفجأ المتلقى بما لم يكن قد أعد نفسه لتوقعه، أو تَمُطُّ الحدث، وتطيل زمن وقوعه لتحتبس معه الأنفاس، وتشتد وطأته على النفوس حين يقع العطف بـ«ثم»، مما سيجده القارئ جليّاً فيما أوردناه من نماذج الكتاب المجيد، كما فى قوله تعالى: ﴿**أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ [الأنعام: ١٥٧] وقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: ٥٦] والفاء فى هاتين الآيتين أحدثت من المفاجأة والذهول ما يشهد بإعجاز النظم.

وهذا مثل آخر تكشف فيه «ثم» عما كان يعيشه المنافقون من التردد والحيرة والخوف من أن تلاحقهم عيون المؤمنين، وهم ينصرفون عن مجلس الرسول حين تُنزل عليه سورة من القرآن، تنبئهم بما فى قلوبهم، فيتسللون لواذا ويحتالون فى أن لا يشعر بهم أحد، فترسم «ثم» حركتهم البطيئة الحذرة. وتصور ملامحهم المرتعدة ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا**﴾ [التوبة: ١٢٧] فماذا لو استبدل النظم الفاء بثم؟ لا ريب أن سِلْكَ النظم سوف

ينقطع وينفرط عقده، وأن هذه المعاناة النفسية والحذر الشديد الذى رسمته «ثم» على وجوه القوم سوف يذهب بذهاب حرف التراخى.

إننى أزعم أن الكشف عن أسرار حرفى العطف «الفاء» و«ثم» فى الكتاب المجيد ظل منثوراً فى كتب المفسرين، لم يتجه أحد من قبل إلى نظم حباته، والسير بها نحو غايات تنتظمها، وتقارن بين ما اشتبه نظمه واختلفت أغراضه، حتى كان هذا الكتاب الذى حاول أن يقدم صورة متكاملة لمواقع الحرفين فى الذكر الحكيم، ويحدد غاياتها، ويستنطق السياق للإبانة عما غاب من أسرارهما.

ولا زلنا بحاجة إلى دراسات تستقرى حروف العطف الأخرى وتكشف عن الفروق الدقيقة، والوجوه المعجزة فى مواقعها من نظم القرآن، مثل الحروف التى أشار إليها عبد القاهر فيما سبق نقله عنه، وهى أو، وأم، وبل ولكن، كما أننا بحاجة إلى دراسات أخرى تتوخى رصد فروق النظم بين أدوات النفى، وكلها دراسات تتكامل لتجلى دلائل الإعجاز فيما أوحاه الله إلى رسوله ليكون دليلاً على صدق نبوته، ولتجدد الإيمان بأنه سيظل قائمًا بدعوة الله تعالى يتحدى الخلق بمبانيه ومعانيه، إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وأخيراً فإننى إذ أقدم للقارئ الطبعة الثانية من هذا الكتاب، بعد نفاد الطبعة الأولى، أرجو من الله تعالى أن ينفع بما هدانى الله إليه من أسرار كتابه، وأن يغفر لى زلات القلم، وجفوة الطبع، وعثرة الخاطر فى لحظات الضعف البشرى التى تتقاصر فيها الهمة عن بلوغ مراد الله تعالى، وأسأل الله أن لا يحرمنى أجر المجتهدين المخطئين، حين تثقل بى قدماى عن بلوغ مرتبة المصيبين من المجتهدين.

الإمارات العربية
غرة شعبان ١٤١٤هـ
٢٥ أغسطس ٢٠٠٦م

دكتور
محمد الأمين الخضرى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذى هيأ قلوب عباده لاستقبال فيض هداه، وألقى على بصائرهم من أنوار بيانه ما جلّى لهم حقائق تنزيله، وأفاض على عقولهم من حكمته ما اهتدوا به إلى خفىّ أسراره، ومسّ أذواقهم بعذب كلامه، فاستشرفت لطائفه وغرائبه، وأودع فى أسفارهم من إعجاز الفهم ما يشهد بإعجاز النظم.

وبعد

فإن هذا البحث امتداد لعمل بدأته منذ أربعة عشر عامًا، حين سجلت موضوع رسالتى لنيل درجة الدكتوراه، بعنوان: «**الواو وموقعها فى النظم القرآنى**»، وأسفرت نتائج البحث عن الدعوة إلى إعادة النظر فيما كتبه البلاغيون حول وجوه الربط بين الجمل فى مبحث الفصل والوصل، لعجزه عن استيعاب أسرار النظم القرآنى، وقصوره عن تفسير كثير من الشواهد التى امتلأت بها صفحات الرسالة، وخالفت ظاهر قواعدهم.

ودعوت إلى توسيع دائرة البحث فى أدوات الربط، لتشمل غير الواو من حروف العطف، وقلت ما نصه: (نَبَّهَتْ هذه الرسالة إلى حاجة البحث البلاغى إلى تناول حروف العطف الأخرى بالدراسة، التى تكشف عن وجوه بلاغتها من خلال النظم القرآنى، وتلمس الفروق البلاغية بينها فى متشابهات القرآن الكريم، وهو ما نسأل الله أن يعيننا عليه فى مستقبل حياتنا).

وما كنت أحسب أن كل هذا الوقت سيمضى قبل إنجاز ما وعدت، لكن الله صرفنى إلى مباحث أخرى تتعلق بإعجاز كتابه. وها أنذا أعود -بتوفيق من الله-

إلى شفع دراسة الواو بدراسة الفاء وثم، وهما أكثر حروف العطف دورانًا فى الكتاب العزيز بعد الواو، وأثراها فى تنوع دلالاتهما بين الحقيقة والمجاز، وأشدها استحواذًا على جدل النحاة وأهل البيان.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، وأن يغفر لصاحبه زلة القدم، وقصور الفهم. سبحانك اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

غرة المحرم ١٤١٤هـ
٢١ يونية ١٩٩٣م

دكتور
محمد الأمين الخضرى

obeikan.com

توطئة

إعجاز النظم وإعجاز الفهم

لعله من دلائل الإعجاز أن يفيض القرآن من ندى فصاحته على الدراسات التى تتناول نظمه ما يجعلها أكثر ثراء وخصوبة، وأرحب فهمًا، وأبين قولاً، ويشيع فيها من نور بيانه ما تبدو به أكثر ألقا، وأبعد رؤية، وأهدى سبيلاً.

وآية ذلك أن ترى بعض رجالات البيان، ممن جمعوا بين التأليف فى علوم البلاغة وتفسير القرآن، يدوّنون فى كتبهم من أصول الفن وقواعده ما يتجاوزونه، ويتسامون عليه حين تضيق أرديته عن استيعاب أسرار النظم الحكيم، حتى لتظن أنهم غير هؤلاء الذين أملوا تلك القواعد، وحبّروا تلك الأصول.

لاغرو أن يسمو بيان الرجال بسمو ما يتصدون له من البيان، ولا عجب أن يتسع القول فى القرآن، لما ضاقت عنه كتب أهل البيان، ولا غرابة أن تندى الأذواق بنداه، وتحلّق الأفهام فى سماء بلاغته، لتدرك من أسرار ما لا عهد لها بمثله فى بلاغة أهل الأرض.

فماذا يصنع من دبّج رسوم الفصل والوصل فى كتاب، إذا وجد فى الذكر الحكيم ما يتحد لفظًا ومعنى، ويُخالف بينه بذكر العاطف وتركه، أو بعاطفين مختلفين؟

إنه لا مناص من أن يَثِبَ فوق رسومه ومناهجه، ويتسامى بفكره وذوقه لإدراك ما تعجز القواعد عن البوْح بمكنون سره.

فأى قاعدة تتسع لمثل قوله تعالى على لسان قوم صالح يخاطبون نبيهم: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا**﴾ [الشعراء: ١٥٣- ١٥٤] فتتصل الجملتان بلا واصل لفظى. ثم يرجّع تلك المقالة قومُ شعيب فى خطاب نبيهم

﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٨٥، ١٨٦]. فيصلون بالواو ما وصله أولئك بغير واصل من اللفظ؟

وماذا يقول صاحب الصناعة حين يرى فى القرآن بيض الوجوه وسودها تتدابر يوم القيامة، وتتباعد نزلا ومنزلة، فتتحاجز بحرف الوصل فى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨- ٤١] وتتمايز بغير حاجز فى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ (٦) لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِى مِن جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾[الغاشية: ٢- ٩]؟

وما الذى جعل القرآن يفصل تارة، ويصل أخرى فيما تستغنى الجملتان فيه عن الرابط اللفظى لكمال الاتصال بينهما، فتراه يفصل التوكيد عن المؤكَّد فى قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا...﴾ [الطارق: ١٧] ويصلهما بالواو، فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ...﴾ [الحشر: ١٨] وبالفاء فى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا...﴾ [القمر: ٩]. ويصلهما بثم فى قوله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ...﴾ [المدثر: ١٩، ٢٠]؟

وما هذه الاختلافات بأدوات الوصل فيما اشتبه نظمه، بالواو والفاء حينا، كما فى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ [الأحقاف: ١٠] وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ...﴾ [فصلت: ٥٢]؟

وبالفاء وثم حينًا آخر، كما فى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ...﴾ [الكهف: ٥٧] وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ...﴾ [السجدة: ٢٢]؟

إن أسلات أهل الصناعة كثيرًا ما تتجمد، وتخذلهم القواعد فى بيان وجه الاختلاف، فيهرعون إلى أرباب البيان من المفسرين، يستمدونهم ما أفاض الله عليهم من أنوار كتابه، وألقى على أذواقهم من عذب بيانه، فقرّب لهم ما اغترب، وكشف لهم ما احتجب، كما تراه فى مبحث الإطناب، حين غلب أهلَ المعانى على قواعدهم عطفُ المكرر، لمخالفته ما تقرر عندهم من فصل التوكيد عن المؤكَّد، فأسرعوا إلى جار الله الزمخشرى، يستهدونه وجهًا لهذا العطف، وعادوا يرددون ما قال.

إنه من السهل أن يخطَّأ مبدع يخرج على أصول الفن، فإذا ما كان الخروج فى الكتاب المجيد، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تسامت الأفهام والأذواق، بحثًا عن أسرار العدول عن الظاهر، فأتت بما كانت تعجز عن الإتيان بمثله فى فهم كلام فرسان البيان، وكأن هناك إبداعًا فى الفهم، ومستوى من الإدراك والتذوق لبلاغة القرآن، لا تجد مثله فى فهم كلام البشر.

هل أكون قد غاليت إذا قلت: إن هناك إعجازًا فى الفهم يرتبط بإعجاز النظم، وإن الله ليهيىء العقول والقلوب لاستقبال فيض أسراره، بما يجعلها غير التى تقف على أسرار الإبداع فى بيان الناس؟ إن الله تعالى أودع كتابه من سعة المعانى وتنوع المقاصد، جليِّها وخفيِّها، ما يتيح لكل زمن أن يقتبس من أنواره ما يضىء جوانب عصره، ثم يبقى فيض إشعاعه حيّاً يشرق فى كل عصر بفُهوم متجددة، تملأ أقطار النفوس، وتبعث فيها اليقين بأن عطاء هذا الكتاب المعجز لا ينفد، وأن حروفه وكلماته وجمله تنفخ فى العقول والقلوب من روح الله السارية فيها ما يوسع ضيِّقها، ويعمق إدراكها، ويفتح لها من مغالق الفهم ما يقربها من استلهام مراده، وذلك ضرب آخر من الإعجاز يُبقى إعجاز النظم قائمًا إلى يوم القيامة، يستنهض همم أهل البيان للبحث فيما استودعه منزِّله من خفى الأسرار ولطائف الإشارات. وإلا فقل لى ما السّر فى غياب إدراك التجوز فى حرفى التعقيب والتراخى، وهو أسمى مواقع الحرفين، وأكثرها ثراء،

وأحفلها بأسرار البيان، حتى كان الزمخشرى هو الذى افتضّ عذرته، واهتدى إليه فى الذكر الحكيم، ليسرى منه إلى ما كان مجهولاً فى كلام المبدعين؟ كأن القرآن يوجه إلى إعادة اكتشاف ضروب من المجاز فى كلام الفصحاء، لا تقع عليها عين قبل أن تستجليها البصائر فى الكتاب العزيز.

وإذا أردت دليلاً على ما أقول، فاقرأ ما كتبه المرزوقى فى شرح بيت الحماسة:

لا يكشف الغمّاءَ إلا ابنُ حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

حيث أسرع إلى سلب «ثم» دلالتها الأصيلة على المهلة، حين لم يبد له وجه للتراخى بين زيارة الغمرات ورؤيتها.

وقارنه بما قاله الزمخشرى فى هذا البيت، حين عرض لقوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا** ﴾ فخلع عليه من جلال الإعجاز فى فهم النظم الحكيم ما كشف عن وجه المجاز فيه، وأراكه لونًا من الإبداع، بعد أن حسبتَه فى كلام المرزوقى ضربًا من القصور، وهو ما سيجيئك فى موقعه عند الحديث عن إثراء الدراسات القرآنية لمعانى حرف التراخى.

فإذا كانت مناهج البلاغة قد ضاقت عن البحث فى حروف العطف سوى الواو، بحجة أنها وحدها بحاجة إلى دراسة الربط بها، لافتقارها إلى معنى زائد يوجب ذكرها أو تركها، كما هو شأن غيرها من أدوات الربط، فإن كتاب الله قد وسع هذه الحروف، فأثرى دلالاتها، وهيأ لها نوافذ للدراسة، بعد أن أوصدت أمامها الأبواب فى مباحث البلاغيين.

على أن هناك نافذة لدراسة حروف العطف، وإبراز ما بينها من فروق فى النظم، كانت على وشك أن تفتح فى المباحث البلاغية، لكنَّ ما نفذ منها ظلَّ شعاعًا خافتًا لم يكتب له أن يمتدَّ ويتسع مداه، وذلك حين التقط السكاكى من كلام النحاة فى خصائص العطف ما يهيئ لدراسة فى فروق المعانى وأغراض الكلام. فقال فى بحث المسند إليه: (وأما الحالة التى تقتضى العطف، فهى إذا

كـان المـراد تفصـيل المسند إليـه مع اختصار، كقولك: جاء زيـد وعمرو وخالد، أو تفصيل المسند مع اختصار، كقولك: جـاء زيد فعمرو فخالد، أو ثم عمرو ثم خالد، أو جاء القوم حتى خالد)[1].

فـحـدَّد بدقة فـرق مـا بين الواو وسـائر حـروف العطف فى أغـراض النظم ودواعيه، إذ أنها بدلالـتها على الجمع المطلق تأتى لتفصـيل المسند إليه، فى حين يكون الغرض من باقى حروف العطف هو تفصيل المسند، لما تختص به من معان زائدة على الجمع هى الغرض من الكلام ومحط الفـائدة فيه، لذلك أنت تستطيع أن تستـبدل جـاءنى رجلان بقولك: جـاءنى زيد وعمـرو، دون أن يفوتك شىء سوى التـفصـيل، لكنك لا تستطـيع ذلك فى قولك جـاءنى زيد فعـمرو، لأن الغرض ليس إثبات المجىء، وإنما هو مجىء على هيئة خاصة، يعقب فيها الثانى بلا تراخ، وكأن المخاطب يـعلم مجيئهـما ويعين الجائى، ويريد معـرفة من سبق بالمجىء، وهل كان بين المجيئين فاصل زمنى أم لا؟

هذا هو الاستثمار الحقيقى لمعانى النحو، وتوظيفها للكشف عن دواعى الكلام وأغراضه، وما بين أنساقـه من فروق فى الدلالات. وهو ما لم يفت أهل المعانى أن ينبهوا إليه، وإن جاء حـديثهم مقتضبًا خاطفًا. يقول العـصام مفيدًا من كلام شيخ البلاغة فى تحديد فروق المعانى بين حروف العطف: (ذكر الشيخ ما محصله أنه ما من كلام فيه أمر زائد على مـجرد إثبات شىء لشىء أو نفيه عنه، إلا وهو الغرض الحـاصل والمقصود من الكلام، وهذا مـا لا سبيل إلى الشك فيـه، ففى نحو: جاءنى زيد فعمرو، يكون الغرض إثـبات مجىء عمرو بعد زيد بلا مهلة، كأنه معلوم أن الجائى زيد وعمرو، والجـهل إنما تعلق بالترتيب والتعقيب، فيكون العطف لإفادة تفصيل المسند لاغير)[2].

لكن هذه الومـضة لم تـتسع دائرة ضـوئها، وظـلت هى كل نصيب حـروف العطف من دراسة البلاغيين، عدا الواو فى باب الفصل والوصل، وما ذكروه من

(١) مفتاح العلوم ١٠٧.
(٢) الأطول ١/ ٢٢٣.

عطف المكرر فى باب الإطناب، أو جاء عـرضًا فى باب الحذف مما أسمـوه الفاء الفصيحة، وكله تحدر إليهم من بيان المفسرين، وخاصة جار الله الزمخشرى.

وحين نعود إلى النظم الحكيم نجد من فاءاته عجبًا، ومن الدراسة فى معانيها وأسرارها فهُومًا لا تجدها فى دراسـات دارت حول نص آخر. وكأن القرآن ينفخ فى عقل الباحـث عن أسراره من روح إعجازه، وهدى أنواره ما يرتـفع بمستوى إدراكه إلى سماء نظمه، فنجد الفاء تلبس من أكسـية المجاز ما تتنامى به معانيها، وتتكاثر إشاراتها بما تقصر عنه فى حـقيقتها، فتُضمر فى أحـشائها صفحة الزمن حينًا، وتمطُّها وتمطلهـا حينًا آخر، وتنشر ألوانًا من التـرتيب بين الألفاظ والمعانى غير ما عهد فيها، وتقلب أوضاع الكلم لتعكس لك انقلاب الأوضاع فى الواقع، واختلال الفكر والسلوك.

وتتأمل حـرف التراخى فى الذكر الحـكيم، فتقع لأول مـرة على ضروب من المجاز، تستعار فيها أردية الزمن، لتُباعد بين المعانى، وتفاضل بين المنازل، وتبرز التناقض بين المقدمات والنتائج، وتضفى على المعـانى من حركة الزمن ما يجعلها أقدر على نقل حركات الفكر ونبضات الشعور.

وإنك لتعـجب لهذه اللغـة التى اختـارها الله وعاء لكتابه، وكـيف توائم بين الألفاظ ودلالاتهـا فى إحكام يشهـد بأن الله أسبغ عليهـا ما يؤهلهـا لاستيـعاب أسرار الإعجاز فى القرآن المجيـد. والدليل على ذلك أنها اختارت اللفظ الأقصر صوتًا، والأسرع نطقًـا ليدل على سرعة تعاقب الأحداث، كـما هو شأن الفاء، المكونة من حرف واحد، يمرّ بظاهر الشفة همسًا، وكأن ما عبَّر عنه من الأحداث يمرّ بسرعـة صوته. ثم اختارت اللفظ المطول نطقًا، بما ضـمه من حروف ثلاثة، وما صـاحبـه من تضـعيف أثقل حـركتـه على اللسان، ليـدل على بطء حـركة الأحداث، وتثـاقل خطوات الزمن، إنها بحق لغـة شاعرة كمـا أسماها الأسـتاذ الكبير عباس محمود العقاد. وهى حقيقة بأن تكون لغة الكتاب المعجز.

وإذا كان حرفـا التعقيب والمهلة يمـثلان حركة الزمن، ويجـسدان خطواته فى بطئهـا وإسراعها، فـإن مقياس الزمن فى لغـتنا الشاعرة إحسـاس قبل أن يكون

حركة عقارب. وخفقاتُ شعور قبل أن يكون دقات ساعة، فكم يقْصُر زمن فى عين هو طويل فى عين سواها!! وكم يضمر الزمن فى لحظات الأنس والسعادة، ويتمطّى فى ساعات الألم والشدائد، ولحظات الترقب والانتظار!!

أترى الأيام والليالى قد طالت وقصرت حقيقة على النحو الذى أتاح لشاعر أن يقول:

فى ليل صُول تناهى العرض والطول كأنما ليله بالحشر موصول

ولآخر أن يقول:

ويوم كإبهام القطاة محبب إلىّ صباه غالب لى باطله

أم أنه فيض إحساس عكسه كل منهما على وجه الزمن؟!

لقد كان العربى غاية فى الصدق حين ينقل إلينا إحساسه بالزمن، فلا يطلق الليل والنهار، وإنما يقيدهما بما يلقى فى نفسك أنه يعبر عن إحساسه لا عن حقيقة الزمن، كما تراه فى إضافة الليل إلى المكان فى البيت الأول، وكأن لهذه المدينة ليل خاص ليس لسواها من المدائن. وفى البيت الثانى جاء «محبب إلى» قيدًا لليوم، ليشعرك بأن حبه هو الذى أضمر الزمن، وقصر لحظاته، وهكذا تجد امرأ القيس حين يستطيل الليل يضيفه إلى نفسه:

تطاول ليلك بالإثمد وبات الخلىُّ ولم ترقد

فأراك ليله طويلاً بطىء الخطا، يقبض على أنفاسه، وهو غير ليل الخالى المستغرق فى نومه. فكانت إضافة الليل إلى المخاطب، إشارة إلى أنه ينقل إليك إحساسه، ولا يعبر عن حقيقة عقارب الساعة.

إن هناك فرقًا بين التعبير عن حقيقة الزمن، المتمثل فى المعانى الوضعية، للفاء وثم، وبين نقل الإحساس بالزمن حين يكتسى معه الحرفان رداء المجاز، فيضمر فيهما الزمن أو يتمدد.

ألا ترى كيف عبّر القرآن عن حقيقة الزمن فى قصة أهل الكهف، فجاء حرف المهلة ليومئ إلى ثلاثمائة سنة أو تزيد فى قوله: ﴿**فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ**

سنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١١، ١٢] ثم ترى الزمن الطويل الذى جسّده حرف المهلة بحقيقة التراخى فيه ضمر وانكمش فى تعبير أهل الكهف عن إحساسهم ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ...﴾ [الكهف:١٩] فصدقوا فيما نقلوه من إحساسهم بالزمن، وإن خالف ذلك حقيقته.

لقد كانت لفتة ذكية تلك التى أومأ بها صاحب الفرائد إلى اعتبارات تختلف معها نظرات المتكلمين إلى الزمن، حين قال فى عبارة دقيقة كاشفة: (ثم إنه يُستقصر الزمان بين شيئين تارة لاعتبار مناسب، فيؤتى بالفاء، ويستطال ذلك الزمان بعينه بين ذينك الشيئين أخرى، لاعتبار آخر، فيؤتى بثم)[1].

فالزمان الواحد يُرى طويلاً باعتبار، وقصيرًا باعتبار آخر، وما ذلك إلا لأنه فيض إحساس تجسّده الكلمات فى بعد حسى، وتعكسه على مرآة الزمن.

لا عجب إذًا أن يكون هذان الحرفان بحاجة إلى لون من الدراسة، تبحث عن أسرار الحرف فيما فارق فيه حقيقته، وتكشف عن أغراض النظم فيما يتقارض فيه الحرفان مواقعهما، مثلما تجده فى قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥] وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠] لتكشف عن دواعى المغايرة بالفاء وثم، فيما يبدو شبيهًا بالموضع الواحد.

لقد كان ابن الأثير على وشك أن يقدم لنا النموذج لهذه الدراسة المقارنة فى بحثه الذى أفرده للحروف الجارة والعاطفة، حين أتاح له منهجه ما لم يُتحْ فى مناهج الآخرين. فبعد أن أبان فروق المعانى بين حروف العطف، وإعجاز القرآن

(١) الفرائد فى شرح الفوائد ٢٤.

فى وضع الحرف موضعه، معتمداً على المعانى الحقيقية للحروف، توقف أمام مشتبه النظم، مما اختلف فيه العاطف، ليبين سر المخالفة، ولكن يد البلى طوت عنا محاولته، ولم تبق لنا غير اعتراض ضاع جوابه. قال ابن الأثير، وهو يعرض لقوله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً**﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤]، (فإن قيل: إنه قد عطف المضغة على العلقة فى هذه الآية بالفاء، وفى أخرى بثم، وهى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ**﴾ [الحج: ٥] فالجواب عن ذلك..)[1] وهنا طمست أصابع الزمن هذا الجواب ولم يعثر محققا الكتاب فى أصول المخطوطة على أثر لهذا الجواب، الذى كنا نتمنى أن نراه بذوق ابن الأثير. كما لم نجد عند صاحب الطراز -وهو الذى اقتفى أثره واستمد منه فيما عرض له من البحث فى حروف العطف- ظلاً لهذا الجواب.

ولعل هذا أحد الأسباب التى دفعتنى إلى استكمال ما بدأه ابن الأثير، على أن يكون الهدف هو رصد ما خالف الظاهر من الحرفين فى مواقعهما من الذكر الحكيم، والبحث عن وجوه البيان المستورة وراء هذه المخالفة، سواء فيما فارق الحرف دلالته الوضعية، أم اقترض موقعًا لسواه، مستهديًا بآثار المفسرين من رجالات البيان، واقفًا على ما دوّنه النحاة واللغويون فى معانى الحروف، ملتفتًا إلى إشارات أهل المعانى.

وآمل أن يجد الباحثون فى استعارة الحروف من هذه الدراسة ما يوسع مجال بحثهم، ويتجاوزون به حروف الجر التى غالبًا ما تستأثر بالحديث كله عن استعارة الحروف، فلربما يدفع هذا الامتداد بالدراسة إلى إعادة النظر فى فهم آراء الرجال، على ضوء نظراتهم فى استعارة الفاء وثم من حروف العطف.

(١) المثل السائر ٢/ ٢٣١.

كمـا أن الحديث عن قرينة المجاز اللغـوى بحاجة إلى الوقـوف على نصوص القوم فيما صرحوا فيه باحتمـال الحقيقة والمجاز فى حرف التراخى، وما إذا كان يستدعى النظر فيما استقر لدى أهل البيان من أن المجاز ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة، بعد أن نرى من يجيـز الجمع بين التراخى الحقيقى والمجازى فى الموضع الواحد.

إن إخـراج الفاء وثم من الدراسـة فى باب الفـصل والوصل، اعـتمـادًا على مالهما من خصوصيات زائدة عن مطلق الجمع، يتـغاضى عن أكثر مواقعهما ثراء فيما خرجتا فيه عن معانيهما الوضعية. كما أنه ليس هناك مبرر لإهمال دراستهما فى استعارة الحروف، أو فى مبحث التقـديم والتأخير للكشف عن أسرار مخالفة الظاهر فى الترتيب بين المتعاطفات.

فهل آن لنا أن نعـود إلى منهج ابن الأثير فى إفـراد مبـحث لحروف العطف، على ألا نقف عند معانيهـا الوضعية كما وقف، بل نتجاوزها إلى مـا فارقت فيه حقـــائقـها، وخرجـت عن ظاهـر مـا وضـــع لها، أو تعـاورت فيـه مواقعها؟ هذا ما نؤمّله.